

أسس الدراسة النقدية للعقل العربي عند محمد عابد الجابري

The foundations of the critical study of the Arab mind according of
Muhammad Abed Al-Jabri

مختبر الابعاد القيمية
جامعة وهران / الجزائر

د . رحموني ميلود*
rahmounimiloud5@gmail.com

الإرسال: 2022/06/11 القبول: 2022/06/16 النشر: 2022/07/01

ملخص: هناك إشكاليات يحاول الفكر العربي الاسلامي المعاصر معالجتها بطرق مختلفة عن تلك التي جرت معالجتها بها، ومن بين هذه الإشكاليات ما يتعلق بالتراث النصوي والنص القرآني، حيث يحتدم الصراع بين طرفين، طرف يضرب طوقا على النصوص الدينية والنص القرآني ويمنع إعادة النظر بمناهج مخالفة للسلف، وطرف يسعى إلى تناول هذه النصوص بمناهج معاصرة وفلسفية. كلمات مفتاحية: الفكر: العربي؛ معاصر؛ مناهج؛ قراءة.

Abstract

There are problems that contemporary Arab Islamic thought is trying to address in different ways from those that have been dealt with, and among these problems is what is related to the textual heritage and the Qur'anic text, where the conflict rages between two parties, a party that puts a strain on religious texts and the Qur'anic text and prevents reconsideration of approaches contrary to the predecessor, and the other party It seeks to address these texts with contemporary and philosophical approaches .

Keywords : thought; Arabic; contemporary; Curricula; reading

* د. رحموني ميلود rahmounimiloud5@gmail.com

مقدمة

لابد أن ينتبه كل باحث في مجال الفكر إلى ذلك حراك فكري الذي عرفته الساحة الفكرية العربية الإسلامية في السنوات الأخيرة ، وما نلمسه من خلال هذه المرحلة أن هذا الفكر اخذ يشتغل على كثرة من القضايا والمشكلات تتعلق بمجالات متعددة ، والإشكال الغالب في خطابات هذا الحراك والذي غلب على مساره التكويني هو سؤال النهضة ، يثار هذا بطبيعة الحال موازاة مع ما يحدث من تطورات كبيرة وقفزات علمية هائلة على مستويات متعددة في الحضارة الغربية ، والمقارنة بين واقعنا وواقع هذه الحضارة يحيلنا على استنتاجات كثيرة جدا أهمها أننا نتقهقر وغيروا أخذ في التطور ، فالأمة العربية الإسلامية تتلذذ بسباتها الطويل وغيرها لا يغفل عن أهمية عنصر الزمان في تشكيل الفارق ، وهنا نحت العديد من التجارب الفكرية المتنوعة إعادة بلورة سؤال النهضة من جديد .

هناك الكثير من الأسماء الفكرية التي طرحت في خضم هذا التفاعل الفكري المشهود العديد من الأفكار والأطروحات على مستوى الكتابة والتأليف ، وهو ما ساهم في إثراء الحقل المعرفي بالعديد من الدراسات في هذا السياق ، مما جعل منها مرجعية تعد بمثابة الرصيد المعرفي لخطابات الحداثة ، لأنها خطابات تستعير بعض المفاهيم والمنهجيات من الحضارة الغربية ، وهو ما جعلها خطابات قدمت شكلا معيناً من الإضافة ذات طابع نوعي بالنسبة للفكر العربي الإسلامي الحديث والمعاصر بدون الاستغناء بطبيعة الشأن عن فاعلية عنصر الحفريات ، نظرا لأهمية عنصر الحفريات في بناء الإشكاليات التي كانت تؤسس لنقطة البدء بالنسبة لكل الأطروحات الحديثة والمعاصرة .

1 - نقد العقل العربي مشروع الجابري

إن الأهمية التي يكتسبها أي خطاب مرتبطة بقوة المنطلقات التي تتشكل عليها أرضيته من جهة ، ومن الجهة الأخرى يرتبط بالمرامي التي يسعى إلى الوصول إليها . لذلك تتجلى قوة هذا التفاعل الفكري المتحد عنه من حيث هو تفاعل فكري يحاول بشكل يبين استفاء كل الشروط ودراسة كل العوامل الدافعة إلى النهضة والتقدم .

إن سيل الحديث هذا لابد يقودنا إلى الانتباه إلى بعض الأطروحات الفكرية المعاصرة التي انبثقت مضامينها من أجل دراسة التراث والعقل العربي الإسلامي دراسة مغايرة لتلك الدراسات الأخرى من الناحية المنهجية والنظرية والاستشرافية كذلك ، وفي هذا المسار تعتبر أطروحة محمد عابد الجابري من أهم الأفكار التي استنزفت جهدا كبيرا في دراسة التراث الإسلامي العربية وبنية العقل الذي ساهم في دراسة النصوص الدينية ونتاج تراث نصوبي

هائل، حيث تتجلى ملامح هذه الدراسة التي قام بها الجابري باعتبارها مشروع فكري من خلال خاصية العرض المستفيض لمسائل التراث والمساءلة النقدية للعقل المنتج للنصوص التراثية أو للعقل الدارس لهذه النصوص ، ولقد نعتة صاحب مشروعه هذا بمشروع : "نقد العقل العربي" ، وهو ما يعرضه في كتابه الذي يحمل عنوان " نقد العقل العربي" الذي جزأه إلى أجزاء معروفة من خلال " تكوين العقل العربي " ، وصولاً إلى " نقد العقل العربي " وهذا المشروع ظهر إرهاباته في كتابه المعروف بـ " نحن والتراث " .

في اللحظات التي بدأ مشروع الجابري يتجه إلى الاكتمال وصفته الكثير من الدوائر الفكرية العربية على أنه مشروع يأتي بمثابة اللحظة الجديدة التي تسعى إلى مقارنة ودراسة التراث دراسة إبستمولوجية ، هذه الدراسة لا بد لها أن تتسلح بالمنهج الفلسفية المعاصرة حيث يحتم توظيفها التوجه إلى إحداث القطيعة الابستمولوجية مع أشكال الممارسات الفكرية القديمة التي سبجت التراث في دائرة الممنوع الذي لا يقبل أي شكل من أشكال التجديد في مضامينه ، حيث يقول محمد الإدريسي متحدثاً عن مشروع الجابري : " ثم جاء صدور كتابه " تكوين العقل العربي باعتباره الحلقة الأولى ضمن مشروع كبير اعتبر في حينه خطاباً جديداً أحدث هذه حقيقة في الساحة الفكرية العربية الإسلامية ، كما شكل ظاهرة فكرية مغناطيسية حقيقية جلبت إليها جل مفكري الانتلجنسيا الرتبة من الذين كانت إسهامات فكرية متعددة ومهمة...." (1) .

يُعد الجابري في هذا السياق من المفكرين المعاصرين الذين كرسوا حيّزاً كبيراً من اهتماماتهم الفكرية لدراسة التراث العربي الاسلامي من كل نواحيه ، نظراً لأهمية ذلك الكم المعرفي الذي يزخر به هذا الأخير ، يأتي اهتمام هذا المفكر بالتراث لأنه يعتقد ويؤمن إيماناً كبيراً بأن إمكانيات تنطيق هذا التراث ودفعه لقول المزيد من المعاني والحقائق من الأمور الممكنة والمتاحة . ويكتسي هذا الهدف أهمية كبرى لأنه من الأمور التي ستساعد في صياغة وبناء خطاب الحداثة بشكل جديد للاستفادة منه في توجيه راهننا المنحط وشخصنة مستقبلنا ، هذا الخطوة الإجرائية لا بد لها لكي تحقق أهدافها أن تتبنى المنهج السليم والكفيل ببناء قراءة ومساءلة نقدية جادة ، حيث تعتبر هذه المساءلة النقدية عماد المشروع الذي يتباه الجابري ، حيث يعتبر : " المنهج الابستمولوجي الذي اعتمدته الجابري في مشروعه " نقد العقل العربي" كان

(1) الإدريسي ، حسن ، محمد عابد الجابري ومشروع نقد العقل العربي ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 2010 ، ص 10 .

هو العطاء والإبداع الجديد والمميز للبحث الجابري في هذا الشأن عن غيره من البحوث الأخرى...."⁽¹⁾.

2 - أليات التأسيس للعقل العربي عند الجابري:

إن التأسيس للعقل العربي الاسلامي ينطلق أولا من ضرورة تحديد الوجود المفاهيمي لهذا العقل ، وذلك من خلال البحث عن تعريفاته في مستويات متنوعة ومتعددة منها ما هو موجود في النص القرآني ومنها ما هو موجود في النصوص التراثية. إن القرآن الكريم ينظر إلى العقل على أنه جوهر متعالٍ والمتسامي، باعتباره يدل على كيان الإنسان، لذلك نجد النص القرآني لا يفصل العقل عن الوظائف التي يقوم بها، مثل وظيفة ادراك الحقائق بنوعها الدنيوية والأخروية، يقول محمد الوكيل عن تعريف القرآن للعقل: " فإنه لا يورد العقل إلا مقرونا بالإيمان، وبالعلم والعرفان المؤديان إلى معرفة الحق عزّ وجلّ، والتميز بالخصوص بين الحق والباطل وبين الخير والشر "⁽²⁾.

أما العقل العربي في منظور الجابري فهو العقل الذي ارتبط وجوده وتشكله بجملة من القواعد المرتبطة بالثقافة العربية بطبيعة الحال، وهنا جدير بالملاحظة أن هذا العقل لا يشبه في طريقة تشكله العقل اليوناني، لذلك سنجد أن الجابري يؤسس لتعريف العقل العربي من خلال الإقرار بأنه العقل الذي لا ينفصل عن البيئة الثقافية التي تشكل فيها، وكذلك التأثير الذي مارسه عليه الثقافات الأخرى، ومنه نجد أن الجابري يحدد تعريفا العقل العربي على أنه: " الفكر بوصفه أداة للإنتاج النظري صنفها ثقافة معينة لها خصوصياتها، وهي الثقافة العربيّة بالذات ، الثقافة التي تحمل معها تاريخ العرب الحضاري العام وتعكس واقعهم أو تعبر عنه وعن طموحاتهم المستقبلية، كما تحمل وتعكس وتعبر في ذات الوقت، عن عوائق تقدمهم وأسباب تخلفهم الراهن "⁽³⁾.

إنّ الدلالات التي يحملها هذا التعريف يجب أن تشكل الدافع إلى القول بأن هذا المفكر لا ينظر إلى العقل العربي أنه وليد البيئة العربية وثقافتها فقط، لأن عامل الثقافة العربيّة يشكل البيئة الخاصة وهي أحد العوامل المساهمة في تشكل هذا العقل، ذلك أنّ هذا المفكر لا ينكر التأثيرات الخارجية ودورها في تحديد ملامح العقل العربي، وتكمن هذه التأثيرات في الثقافات اليونانية والغربية الأخرى، ومنه ندرك أن هذا العقل المتحدث عنه لم يكن عقلا متوقفا على

(1) الإدريسي ، المرجع السابق ، ص 11 .

(2) الوكيل، محمد ، عزيز ، تحديث العقل المسلم ، مطبعة الرباط ، ط 1، 2004 ، ص 40 .

(3) الجابري ، تكوين العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط 1 ، 2009 ، ص 13 ، ص 14 .

ذاته، بل كان عقلا منفتحا على منتجات العقول الأخرى، مع أنّ الجابري في مشروعه النقدي للعقل العربي كان تركيزه فيه منصبا على العقل العربي الذي تحدد بناؤه داخل البيئة الثقافية العربية التي تعتبر بمثابه الخزان لهذا العقل ومرجعية له، ومنه يكون عقلا مسؤولا عن الواقع وتجلياته.

عندما تساير المفاهيم والمصطلحات التي يستعملها الجابري في هذا السياق نجده يحبز بل يميل إلى توظيف مصطلح العقل العربي بدل من توظيف مصطلح العقل الاسلامي، لأنّ العقل العربي هو ركن الزاوية في مشروعه النقدي، لذلك فهو يحصر نطاق هذه الممارسة النقدية على العقل العربي في شكلها الابستمولوجي متجاوزا أشكال ما يسميه هو بالنقد الإيديولوجي، النقد الإيديولوجي بمعناه الديني اللاهوتي، وهي أحد الدوافع المتحكمة في توجيه عمله إلى العقل العربي، ومنه توجب على هذا المفكر أن يميّز بين الفكر والعقل، وهذا التمييز هو الذي جعله ينظر إلى العقل العربي على أنّه " العقل المكوّن " وليس " العقل المكوّن "، ويحدد الجابري تعريفا للعقل المكوّن قائلا عنه على أنّه: " جملة المبادئ والقواعد التي تقدمها الثقافة العربية للمنتميين إليها كأساس لاكتساب المعرفة أو النقل: تفرضها عليهم كنظام معرفي " (1)، وعليه يصبح من الضروري أن نصل إلى التمييز بين ما هو معرفي وما هو ديني عقائدي.

في سياق الحديث عن العقل المكوّن والعقل المكوّن يعقد لنا هذا الباحث مقارنة بين العقل العربي والعقل اليوناني خاصة، فيضع منتجات العقل العربي في مجال القفه والنحو والفلسفة تتواجه مع منتجات العقل اليوناني، فهناك نموذجين من الأفكار، وهذه المقارنة تسعى إلى استقصاء الأسباب الحقيقية للتقدم والأسباب الحقيقية للتقهقر في ما أنتجه العقل العربي وما أنتجه العقل اليوناني، هذه المقارنة التي قصدها الجابري أوصلته إلى استنتاج جملة من النتائج نعرضها على النحو التالي:

1- العقل العربي عقل مجبر على التفكير التفكير في العلامات الكونية التي تدل على العالم والعالم من خلق الله تعالى، أما في الثقافة اليونانية العقل فيها أساس التفكير حيث يكون الله وسيلة لفهم الطبيعة.

2- إذا كان العقل اليوناني والأوروبي عقلا مرتبطا بالأسباب فإنّ العقل العربي عقل يضل عقلا مرتبطا بالسلوك والإطلاق (المبادئ)، وهذا ما يدل عليه في اللغة العربية.

3- يرتبط العقل العربي بكل ما هو معياري لذلك فهو محكوم بالنظرة المعيارية،

(1) الجابري، المرجع السابق، ص 15.

ومنه يضل هذا العقل تابع للمعايير والمبادئ التي تحدد وجهته ، والنظرة المعيارية تختلف عن النظرة الموضوعية من حيث أن هذه الأخيرة نظرة ذات طابع تحليلي تركيبي .

4- العقل العربي عقل يؤمن بأن المعرفة تتأسس على الأخلاق في حين أن العقل اليوناني يؤمن بأن الأخلاق هي التي تتأسس على المعرفة ، ومنه يكون العقل العربي عقل استدلالي في حين أن العقل الغربي عقل استكشافي .

أ - كيف تكوّن العقل العربي؟

هذا التساؤل المطروح حول الآليات التي تكوّن بها العقل العربي تنكشف الإجابة عنه عند الجابري من خلال الكتاب الذي ألفه في هذا السياق ونقصد كتابه " تكوين العقل العربي"، حيث نجده يستعرض بإسهاب تركيبة وبنية هذا العقل المُتحدث عنه، حيث يعود الجابري إلى البدايات الأولى التي شكلت في منظوره الجينات الأولى لتشكل العقل العربي، وتحليله لهذه الجينات أوصله إلى تفكيك الثقافة العربيّة ومكوناتها التي تعتبر البيئة التي احتضنت العقل العربي وشكلت ملامحه .

إنّ البحث عن الآليات والمكونات التي شكلت العقل العربي تبدأ أولاً من خلال التأسيس لمفهوم العقل وتعريفه، والبحث عن مفهوم العقل هو بحث عن مفهوم الثقافة ومفهوم الفكر، وهو السبيل الذي انتهجه الجابري بانتقاله من التعاريف القاموسية إلى التعاريف الاصطلاحية، إن تعريف العقل يعتبر خطوة إجرائية ضرورية نظراً للأهمية التي تكتسبها في هذا الشأن، وعملية الانتقال من التعريف القاموسي إلى التعريف الاصطلاحي غير كافية ، بحكم أنّها تحتاج إلى وضع العقل العربي مقابل عقول أخرى للمقارنة بين الأفكار التي أنتجها كل عقل في فضاءه المعرفي والايديولوجي والمنهجي، وعند مقابلة هذه العقول يكتمل تعريف العقل العربي وتتضح ملامحه بفعل هذه المقارنة التي: " لا تتسم بالاختصاص بل تخضع للتفكيك، والمقارنات الآنية والتاريخية التي لا تتوقف في محطات التراث العربي الإسلامي ومصادره فحسب، بل تتجول في حقول الثقافات والفلسفات المغايرة وقد يطول التجول في هذه الحقول ليتحول تحديد المفاهيم على عروض" ⁽¹⁾ ، وقد حدد الجابري لهذا العمل الذي قام به هدفاً معيناً، حيث أنه يقارب مفهوم العقل العربي من خلال فصله مفاهيمها عن

⁽¹⁾ الإدريسي ، السابق ، ص 71 .

العقول الأخرى ، حيث يقول الجابري في هذا السياق : " إن هذا العرض الذي تتبعنا فيه خطاب العقل الإغريقي – الأوروبي عن نفسه يبرر القول بـ " العقل العربي " ⁽¹⁾ .

إن عملية تنويع التعاريف لها أغراضها في هذا المشروع الفكري ، وأهم أغراضها هو التأسيس الفعلي للمفاهيم كالتأسيس لمفهوم العقل ومفهوم الثقافة ومفهوم الفكر ، ومنه تكون عملية التأسيس هذه القاعدة التي ترتسي عليها عملية المساءلة النقدية التي ستمارس على العقل والتراث ، وهو السياق الذي يقول محمد الإدريسي التالي: " من الضروري التنبيه على أن هذه الجولات التي يمارس الجابري من خلالها سياحته الثقافية والفكرية والفلسفة على طول القارات المعرفية ولغاتها ، لا تصل به إلى نتائج مبعثرة ، بل إنه يتحكم فيها بقوة ، ويتجلى هذا التحكم بوضوح في الخلاصات التي ينهي بها القسم الأول ، فقد جعلها بين مرجعين في تحديد طبيعة العقل العربي... " ⁽²⁾ .

تتجلى مظاهر التأسيس لمفهوم العقل العربي انطلاقا من محددين ، المحدد الأول يرتبط بالتعريف اللغوي الذي يجعل من العقل العربي عقلا لا ينفصل عن الثقافة العربية بطبيعة الحال ، حيث يعقب الجابري في هذا الخصوص قائلا : " إن معنى العقل في الثقافة العربية ، وبالتالي في الفكر العربي يرتبط أساسا بالسلوك والأخلاق ، نجد هذا واضحا في مختلف الدلالات التي يعطيها القاموس العربي لمادة (ع.ق.ل) حيث يكاد يكون الارتباط بين تلك الدلالات وبين السلوك الأخلاقي عاما وضروريا ... " ⁽³⁾ . أما عن المحدد فهو يتعلق بالتعاريف الفقهاء والعلماء ، حيث تتسم تعاريفهم الفقهاء بالتنوع والكثرة ، وعن المحدد الثاني يقول الجابري : " ولعل هذا نفسه ما أبرزه النقاد القدماء أمثال الجاحظ والشهرستاني ممن تعرضوا للمقارنة بين العرب والعجم في مجال الفكر والثقافة ، يقول والشهرستاني: عن العرب والهنود أكثر ميلهم إلى تقرير الخواص للأشياء والحكم بأحكام الماهيات والحقائق واستعمال الأمور الروحانية ، أما العجم (الروم والفرس) فأكثر ميلهم إلى تقرير طبائع الأشياء والحكم بأحكام الكيفيات والكميات واستعمال الأمور الجسمانية... " ⁽⁴⁾ .

هناك بعض المصطلحات التي لا يمكن المرور عليها مرور الكرام نظرا لأهميتها الإشارة إليها في خضم البحث عن ماهية العقل العربي وآليات تشكله ، هذه المفاهيم هي ذات صلة

(1) الجابري ، السابق ، ص 26 .

(2) الإدريسي ، المرجع السابق ، ص 72 .

(3) الجابري – تكوين العقل العربي ، ص 30 .

(4) الجابري – المرجع السابق ، ص 32 .

وثيقة بالعقل العربي ، لذلك كان الوقوف عندها لتحديد تعاريف لها أمرا يساهم في بناء تعريف العقل العربي ، ومن بين هذه المصطلحات نجد " اللاشعور المعرفي " ، " الزمن الثقافي " و " التاريخ الثقافي العربي " ، وهي مصطلحات حدد لها الباحث حيزا من التحديد في مشروعه النقدي .

إن تحديد تعريف العقل العربي حتم على هذا المفكر أن يحدد الزمن الذي تبلور فيه العقل العربي ، والمقصود بها معرفة البداية المرجعية للفكر العربي ومنه بداية تشكل مرجعية العقل المتحدث عنه ، وهنا يركز الجابري كثيرا على عصر التدوين على أنه : " الإطار المرجعي الحق للعقل العربي وليس عصر الجاهلية ولا العصر الاسلامي الأول ، ولا ما قبلهما ، دليل على ذلك أن ما نعرفه عن ما قبل عصر التدوين إنما تم بناؤه في هذا العصر نفسه ، كما أن ما جاء بعده لا يفهم إلا بربطه به ⁽¹⁾ .

هناك الكثير من الباحثين والمفكرين في هذا الشأن الذين يعتبرون -على غرار الجابري - عصر التدوين بمثابة المرحلة التي تجسد بدايات تشكل المرجعية التاريخية للفكر العربي ومنه المرجعية التاريخية للعقل العربي ، وهو على هذا الاعتبار بحكم ظهور العيدي من الصراعات الفكرية والعقائدية أحيانا ، حيث ظهرت العديد من التوجهات الفكرية التي كانت كل واحدة منها تعتقد أنها تمتلك سلطة الفكر وسلطة النص ، ومنه يقر الكثير من الباحثين على أن الفكر العربي له مرجعية تاريخية هي عصر التدوين .

انطلاقا من عملية البحث عن تعريف العقل العربي لا محددين السابقين اللذين أوصلا الجابري إلى تحديد مفهوم العقل العربي توصل إلى خلاصة مهمة في نظره ، وتكمه هذه الخلاصة التي استنتجها في أن : " العقل العربي هو البنية الثانوية في الثقافة العربية كما تشكلت في عصر التدوين " ⁽²⁾ .

إن معرفة العقل العربي والفكر العربي تبقى مهمة غير مكتملة إذا لم يتم تحليل ودراسة المتون التي كان الفكر العربي يشتغل عليها ، لأن جوهر المسألة النقدية يطلب تحليل هذه المتون لأنه الفعل الذي يوصل مباشرة إلى نقد العقل العربي ، لذلك نجد أن الجابري اتجه إلى تكريس حيزا من الاهتمام لجانب المتون تحليلا وتفكيكا ، وتحليل هذه المتون يتطلب من الباحث أن يقوم بتحليل بنية المتون من الناحية اللغوية ، وعليه يبرر الاهتمام باللغة

(1) الجابري ، السابق ، ص 71 .

(2) الجابري ، نفسه ، ص 71 .

العربية عند هذا الباحث في مشروعه الفكري ، ويأتي الاهتمام باللغة العربية لأنها لعبت دورا معيّنًا في كل لحظات التأسيس لملامح الفكر العربي .

كما اتجه هذا الباحث إلى إخضاع طرق التشريع الفقهي إلى التشريح من خلال دراسة ومساءلة بعض أعلام الفقه كالشافعي ، أبو حنيفة النعمان ، حسن الأشعري وغيرهم ، والتشريح عنده قائم على تحليل لمتون التي أنتجها هؤلاء الفقهاء ، كما نجده لا يستثني من عملية التشريح هذه متون الفلاسفة العرب ، وفي عملية التشريح والتفكيك كان يركز على تلك العلاقة التي تربط أصول الفقه بعلم النحو ، اقتراب الجابري من الأنماط المتون المعرفية دفعه إلى تصنيف العقل العربي إلى أنواع ثلاث ، حيث قام بدراسة كل نوع منها انطلاقا من التعريف وصولا إلى تفكيك البنية المعرفية لكل نوع ، وهذه الأنماط من العقل العربي تنعرف عليها على النحو التالي :

1 - العقل البياني :

لقد عرّف الجابري البيان قائلا : " البيان كفعل معرفي هو الظهور والاضهار والفهم والافهام وكحقل معرفي ، وهو عالم المعرفة التي تبنيه العلوم العربية الاسلامية الخالصة " علوم اللغة وعلوم الدين. وتركز الممارسة النظرية داخله على وضع قوانين لتفسير الخطاب المبين ، الخطاب القرآني" ⁽¹⁾.

ويعرف الشافعي البيان على أنه : " اسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول متشعبة الفروع، فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة، إنها بيان لمن خوطب بها ممن نزل القرآن الذي نزل بلغة العرب ⁽²⁾ .

ومنه فإن البيان هو الخطاب القرآني الذي نزل بلغة العرب ، وفعل التبیین هو أن تخضع عملية التبیین لنظام صارم تُحترم فيه علوم اللغة العربية الذي تحدده بطبيعة الحال العلوم العربية التي تربط بالنحو ، الفقه ، الكلام والبلاغة ، وهذا المجال يزخر بالنظريات الكثيرة التي أبدعها علماء اللغة ، وتسمى هذه النظريات بالطرق البيان التي لها طابع نظري، والملاحظ في سياق تعريف البيان أن الجابري خرج بالبيان ونقله من التعريق الضيق إلى التعريق الواسع ، حيث نقله من حقله البلاغي الضيق إلى الحقل الفلسفي ، وبذلك تجاوز نظرة البلاغيين لهذا العلم ، وهو ما نفهمه من قوله : " ولا شك أن الباحث سيرتكب حظا كبيرا

⁽¹⁾ الجابري ، بنية العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط ، 2009 ، ص 56 .

⁽²⁾ الجابري ، تكوين العقل العربي، ص 103 .

إذا هو اعتقد أن الاهتمام بـ" البيان" بأساليب وآلياته وأصنافه كان من اختصاص علماء البلاغة وحدهم ، هؤلاء الذين جعلوا من " علم البيان " أحد الأقسام الثلاثة التي ينقسم إليها " علم البلاغة " العربية (علم المعاني ، علم البيان ، علم البديع) فالبلاغيون الذين اتجهوا هذا الاتجاه كانوا آخر من ظهر على مسرح الدراسات البيانية ، كما أن تصنيفهم ذاك لعلوم البلاغة لم يتقرر بصورة نهائية إلا في مرحلة متأخرة....⁽¹⁾.

لقد تطور علم البيان ليتجاوز النظرة التضييقية التي حصره فيها علماء البلاغة القدامى ، وهذا التطور الحاصل في هذا المجال قد تمخض في عصر التدوين وازداد تطورا بعد هذا العصر، وتظهر ملامح هذا التطور في تنامي وتوسع مجالات البيان ، فلم يعد هذا العلم منحصرًا على الخطاب القرآني ، بل توسعت دائرة عمله إلى مجالات أخرى كالشعر وفن الخطابة وغيرها من أشكال الخطاب المتنوعة ، ودخل هذا النمط من المعرفة في صراع مع أنماط معرفية أخرى كالنمط البرهاني والعرفاني .

هذا الصراع مع أنماط المعرفة الأخرى أمر إيجابي بالنسبة للبيان ، لأن التأثيرات التي مارسها هذه الأنماط عليه هي السبب الرئيسي في تطور البيان ، لأن البيان كان سجين القواعد التي وضعها علماء البلاغة والنحو ، وفي هذه المرحلة كان في حالة اللاوعي ، وبعد التأثير بالأنماط المعرفية الأخرى خرج هذا النمط ما تلك الحالة إلى حالة أخرى وهي حالة الوعي ، وهو ما ساهم في توسع دائرة تطبيقاته ، وهذه فإن ازدهار الجدل في الثقافة العربية ساهم كثيرا في تطوير هذا العلم ، وفي هذا زيادة في حجم الوعي بقيمة البيان ولأهميته ، وفي هذا السياق يقول الجابري : " فإن استمرار المجالات في الثقافة العربية الإسلامية سواء بين البيانيين أنفسهم أو بينهم وبين " العرفانيين " من متصوفة وباطنية واشراقيين من جهة ، أو بينهم وبين " البرهانيين " من مناطقه وفلاسفة من جهة ثانية ، قد زاد من تعميق الوعي بخصوصية "البيان العربي " منهجا ورؤية ، سواء لدى البيانيين أنفسهم أو لدى خصومهم من العرفانيين والبرهانيين ... " ⁽²⁾ ، فتشكل العقل البياني وتطوره جاء على خلفية مرجعيته الأصلية وعلى خلفية تلك الصراعات المذهبية .

من خلال هذا العرض الوجيز لمفهوم البيان وآليات تطوره ندرك أن لهذا العلم بدايات ومآلات ، وكل معرفة ترتبط بهذا العلم تسمى معرفة بيانية ، وهذه المعرفة ساهمت في بروز

(1) الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 13 .

(2) الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 14 .

الفكر البياني ومنه العقل البياني ، هذا العقل خضع عبر مساراته لعدة تطورات كان الطابع الجدلي الملمح المهيمن عليها ، يظهر هذا الجدل من تنوع وانقسام الأبحاث في هذا المجال التي يعرج عليها الجابري قائلا : " إن الأبحاث البيانية قد انقسمت منذ قيامها إلى قسمين : قسم يعني بـ "قوانين تفسير الخطاب" ، وقسم يهتم بـ "شروط انتاج الخطاب" ، وإذا كان الاهتمام بـ "التفسير" يمكن الرجوع به إلى زمن النبي حينما كان الصحابة يستفسرون عن معاني بعض الكلمات أو العبارات الواردة في القرآن ، أو على الأقل إلى عهد الخلفاء الراشدين حينما أخذ الناس يسألون الصحابة عما استغلق عليهم من آية القرآن ، فإن الاهتمام بوضع شروط لإنتاج الخطاب البلاغي المبين لم يبدأ إلا مع ظهور الأحزاب السياسية والفرق الكلامية بعد حادثة " التحكيم..."⁽¹⁾ . ومنه تولد قسم اتجه بعلم البيان إلى التركيز على الخطاب القرآني ، والقسم اتجه إلى انتاج الخطاب الكلامي الجدلي من أجل غايات متعددة كنشر الدعوة ، وكسب الأنصار والرد على أقوال الخصوم .

ب - العقل العرفاني

إن العرفان من الناحية اللغوية فإنّه مشتق من مصدر " عرف" ومنه يدل على المعرفة ، ويعود ظهور مصطلح العرفان إلى أهل التصوف ، ومنه يكون تعريف العرفان من الناحية الاصطلاحية وفي اصطلاح المتصوفة على أنه شكل من أشكال المعرفة، ويعد هذا الشكل عندهم من أسعى وأرقى أنواع المعرفة ، بحكم أنّ هذه معرفة تلقى في القلب على أنها كشف وإلهام ، وجدير بالتنبيه إلى أن هذا المصطلح لم يجرتداوله على هذا المعنى في الأدب الصوفي إلا في مرحلة متأخرة ، ذلك أنّ أهل التصوف يميزون بين المعرفة ذات الطابع الحسي والعقلي وبين المعرفة ذات الطابع الكشفية ، على أنّ النمط الأول من المعرفة يكون بفعل الاكتساب ، أما النمط الثاني من المعرفة فيكون بفعل الحلول ، وهو ما نستوعبه من خلال ما يقوله الشيعي : " معرفة التوحيد وهي خاصة بعامة المؤمنين المخلصين ، ومعرفة الحجة والبيان وتلك خاصة بالحكماء والبلغاء والعلماء والمخلصين ، ومعرفة صفات الوجدانية وتلك خاصة بأهل ولاية الله المخلصين ، الذين يشاهدون الله بقلوبهم حتى يظهر الحق لهم ما لم يظهره لأحد من العالمين"⁽²⁾ .

(1) الجابري ، السابق، ص 20

(2) الشيعي ، كامل مصطفى ، الصلة بين التصوف والتشيع ، دار المعارف ، القاهرة ، 1969 ، ص 363 .

إن هذا النمط من المعرفة الحلولية هي معرفة ذات طابع تذوقي تحل في ذات المتصوف فلا يعرفها إلا المتذوق لها ، ويكون فضل هذه المعرفة كبيرا على المتصوف بحكم أن هذه الأخيرة هي بمثابة الرخصة التي تجعل من المتذوق لها شخصا قادرا على الارتقاء الوجودي ، وهذا الارتقاء الوجودي له مراتب تسمى بالمراتب الوجودية ، وعليه يكون : " الناس إما أصحاب النقل والأثر وإما أرباب العقل والفكر ، وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور والذي للخلق من المعارف مقصود فلهم من الحق سبحانه موجود ، فهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال..."⁽¹⁾.

لقد اتجه علماء الصوفية إلى إحداث تمييز واضح وبيّن بخصوص أنماط المعرفة وطرق تشكلها ، فهناك معرفة برهانية ، معرفة بيانية ومعرفة عرفانية ، وهذا التمييز له مرجعيته التي تكونت عندهم من خلال قراءة القرآن وفهمه فهما عرفانيا ، فحسب فهمهم وتأويلاتهم لقد وردت كلمة " اليقين " في القرآن دائما مقترنة بكلمة " الحق " ، اليقين في قوله تعالى : ((إن هذا لهو الحق اليقين)) سورة الواقعة الآية 95 ، وعلم في قوله تعالى في سورة التكاثر الآية 5 و6 : ((كلا لو تعلمون علم اليقين)) ، انطلاقا من هذا الاقتران ذهب المتصوفة إلى القول بهذا التمييز في أنماط المعرفة ، وحول استعمال سياق الآيتين عند الصوفية للتمييز بين هذه الأنواع من المعرفة يقول ابن هوازن القشيري: " فعلم اليقين على موجب اصطلاحهم ما كان بشرط البرهان ، وعين اليقين ما كان يحكم البيان ، وحق اليقين ما كان بنعت العيان ، فعلم اليقين لأرباب العقول ، وعين اليقين لأصحاب العلوم ، وحق اليقين لأصحاب المعارف"⁽²⁾.

هذا التقسيم الحاصل عند علماء التصوف بقي قائما في الثقافة العربية الاسلامية ، ولقد بلغ أوجه عند رجال التصوف الاشراقيين كالمسهروردي ، حيث نجد أن هؤلاء يتمسكون بهذا التقسيم ويشددون على إقامة الفاصل بين ما يعتنونه بالحكمة البحثية والحكمة الإشراقية ، فالحكمة التي تقتضي توظيف عملية الاستدلال هي معرفة تقوم على البحث عن البرهان ، فهذه المعرفة أقل منزلة من المعرفة التي تقوم بفعل المكاشفة أو ما يسمى بعملية الإشراق ، فالإشراقيين يرون في أفلاطون فيلسوف الحكمة الاشراقية وفي أرسطو فيلسوف الحكمة البحثية ، وفي هذا السوق يقول الجابري : " والواقع أن هذا التمييز بين البرهان أو طريق النظر

(1) هوازن القشيري، عبد الكريم ، الرسالة، دارالكتب العربي، بيروت، (ط ، س) ، ص180.

(2) القشيري ، السابق ، ص44 .

العقلي ، والعرفان أو طريق الإلهام والكشف قد عرف قبل الإسلام بعدة قرون، منت ذلك ما تذكره بعض المصادر من أن " أُمليخ " من بلدة كالكيس: عنجر - الذي عاش بين القرنين الثاني والثالث للميلاد ، كان من ابرز الفلاسفة " المشرقين " الذين ميزوا تميزا واضحا بين المنهج الأرسطي والمنهج الهرمسي..."⁽¹⁾ .

نجد أن الجابري يعتبر أنّ العرفان منهج يؤسس لنمط معرفي يهدف إلى تحقيق معرفة مختلفة تؤدي إلى تحقيق رؤية للعالم ، وهذا النمط انتقل من ثقافات أخرى عرفت قبل ظهور الإسلام إلى الثقافة العربية الإسلامية ، وساد هذا النمط في بعض الأصقاع العربية كمصر والعراق ، وعليه فإنّه نمط معرفي تمت عملية تبيئته والتأسيس لحضوره في الثقافة العربية الإسلامية ، حيث دلت كلمة العرفان في بعض اللغات الأجنبية على المعرفة الغنوصية ، وهو ما يدل عليه لفظ gnosis في اليونانية ، ثم ارتبط معناه بالمعرفة الدينية في الثقافات التي سادت بعد انتهاء زمن سلطة الكنيسة، حيث أصبحت العرفانية تعني: "...جملة التيارات الدينية التي يجمعها كونها تعتبر أن المعرفة الحقيقية بالله وبأمور الدين هي تلك التي تقوم على تعميق الحياة الروحية واعتماد الحكمة في السلوك ، مما يمنح القدرة على استعمال القوى التي هي من ميدان الإرادة ، فالعرفان يقوم إذن على تجنيد الإرادة وليس على شحذ الفكر ، بل يمكن القول إنه يقوم على جعل الإرادة بديلا عن العقل..."⁽²⁾ .

ج - العقل البرهاني:

كلمة البرهان في اللغة العربية تأخذ معنى الحجة الفاصلة والبيّنة ، وفي اللغات الأخرى فهي تفيد في اللغة اللاتينية معاني عديدة : الإشارة ، الوصف ، البيّان ، الإظهار ، أما في اللغة الفرنسية فهناك تفرقة في هذا الشأن ، حيث يميّز الفرنسيون بين الإشارة والعرض (démontrer - montrer) . ومن الناحية الاصطلاحية البرهان هو : " العمليات الذهنية التي تقرر صدق القضية بواسطة الاستنتاج ، أي يربطها ربطا ضروريا بقضايا أخرى بديهية ، أو سبقت البرهنة على صحتها"⁽³⁾ ، وهذا المعنى يسمى بالمعنى الاصطلاحي الضيق ، أما المعنى العام فالبرهان يسقط كل العمليات الذهنية تعمل على إثبات الصدق لقضية ما .

(1) الجابري ، بنية العقل العربي ، ص252 .

(2) الجابري ، بنية العقل العربي ، ص253 .

(3) انظر الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 373 .

إن الجابري يقر في خصوص المعنى الاصطلاحي سواء كان المعنى العام أو المعنى الضيق غير متداولة كثيرا ، حيث أن استعمال البرهان يدل : " على نظام معرفي متميز بمنهج خاص في التفكير وبتقرير رؤية معينة للعالم ، لا تعتمد سلطة معرفية أخرى ذلك المنهج ، نظام معرفي احتل مواقع في الثقافة العربية الإسلامية خلال العصور الوسطى...." ⁽¹⁾ . وعليه فإن الجابري يميز بالمقارنة بين النمط البرهاني والأنماط الأخرى (العرفاني والبياني) لإدراك وفهم طبيعة الكيفيات التي يستعمل بها هذا النمط داخل الثقافة الإسلامية ، هذه المقارنة أوصلته إلى إدراك أن الفرق بين العرفان والأنماط الأخرى كامن وحاصل بينهما في الموضوع والمنهج ، النمط البياني يستمد مرجعيته وسلطته من النص بتوظيف آلية الاجماع والاجتهاد ، والنمط العرفاني يستمد سلطته من الولاية بتوظيف آلية الكشف كمنهج له ، أما النمط البرهاني فمرجعيته وسلطته هي العقل البشري التي تقوم على الاستدلال باعتماد القدرات الحسية والعقلية .

هذا النمط المعرفي كبقية الأنماط الأخرى انتقل بفعل تأثير العوامل الخارجية الكامنة في الثقافة اليونانية ، بحكم أن العرب وظفوا المنهج الاستدلالي في المسائل المرتبطة بالتشريع كالقياس ، وبوضح الجابري ذلك لنا قائلا : "صحيح أن الذين تبنا " البرهان " ، منهجا ورؤية ، في الثقافة العربية الإسلامية، قد وظفوه ككل وكأجزاء في خدمة أهداف لم تكن بالضرورة منحصرة في " المعرفة من أجل المعرفة" كما كان الشأن عند أرسطو، بل لقد وظفوه لخدمة اهتماماتهم الدينية والإيديولوجية التي كانت ذات علاقة مباشرة بالعقيدة الإسلامية...." ⁽²⁾ .

لقد تطور استعمال هذا النمط عند المسلمين مع إضفاء عليه الطابع الاسلامي ، وتتجلى التوسيعات التي أحدثت على هذا النمط في الكثير من المظاهر ، منها ما يتعلق بطريقة توظيفه ومنها ما يتعلق بكيفية تبيئته ليقدم القضايا التي تربط بالمسلمين وتشريعاتهم ، مظاهر التوسيع والتجديد لهذا النمط في الثقافة الاسلامية يظهر قدرة هذا النمط على استيعاب قضايا ومسائل كبيرة تتجاوز الاستعمال النمطي الذي كان سائدا عند اليونان وغيرهم ، ومنه : "يبقى أن "البرهان" كنظام معرفي بقي متميزا ، منهجا ورؤية عن البيان والعرفان بكونه يعتمد منهج أرسطو ويوظف جهازه المفاهيمي والهيكل العام للرؤية التي شيدها

(1) المرجع نفسه ، ص 373 .

(2) الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 374 .

عن العالم ، عن الكون والإنسان والله، مما جعل منه عالما معرفيا يختلف عن عالم البيان وعالم العرفان ويدخل معها ، وبكيفية خاصة مع البيان، في علاقة احتكاك وصدام....⁽¹⁾.

لقد الجابري أهمية كبرى للمنهج الأرسطي في خصوص الحديث عن العقل البرهاني العربي ، وهو ما يدل على أنّ هذا المفكر يجعل من النمط البرهاني أحد أهم أنماط المعرفة ، بحكم طبيعة المنهج الذي يوظفه ، فهو منهج قائم على التحليل الذي يهدف إلى فهم العلم من خلال القيام بتحليل المبادئ والأصول التي يقوم عليها ويعتمدها ، وفي قيمة هذا المنهج يقول الجابري : " معروف أن المنهج الذي شيده أرسطو يسمى المنطق ، وهنا الاسم لم يستعمله أرسطو وإنما استعمله أحد شراحه الكبار وهو الاسكندر الأفروديسي ، أما أرسطو فكان يسمي منهجه باسم " التحليل " والمقصود تحليل العلم إلى مبادئه وأصوله، ومن هنا اسم " التحليلات " الأولى والثانية التي تشكل أهم أجزاء الأرجانون " ⁽²⁾ . الغاية المنشودة لهذا المنهج هي تحصيل العلم ، والعلم هنا يكون العلم بالكليات.

إن الدارس للآليات والكيفيات التي ولج بها هذا النمط إلى الثقافة العربية الإسلامية لابدد يلحظ أنّه فعل تم بفعل عملية ترتيب العلاقة بين البرهان والبيان ، بحكم أنّ النمط البياني هو النمط السائد في هذه الثقافة ، ونظرا للأهمية التي يحوزها النمط البرهاني وظفه المسلمون في القضايا التي تتعلق بالتشريع وغيرها ، وعملية الترتيب لهذه العلاقة لم يكن بالأمر السهل في البداية ، ذلك أنّ : " تأسيس البرهان داخل الثقافة العربية الإسلامية سيكون عبارة عن ترتيب معين للعلاقة بينه وبين " البيان " لا أكثر ، وهذا ما حصل فعلا... " ⁽³⁾ . نجد أنّ فلاسفة الإسلام جعلوا من عملية الترتيب بين النمط البياني والنمط العرفاني ترتيبا برهانيا ، ترتيبا برهانيا بحكم أنّ التأسيس لهذا النمط يستلزم القيام بعمل كبير على المستوى المنهجي والتنظيري ، ويقر الجابري أن هذا العمل كان محفوفًا بالمخاطر والمضاعفات الفكرية وسجلات لحقت بالجانب المرتبط بالعقيدة .

4 - المنهج النقدي في مشروع الجابري

يجري في عصرنا هذا تداول الكثير من الأفكار وإشاعتها بين الناس ، ومن بين هذه الإشاعات نجد تلك التي تروج لموت الإيديولوجيا ، وموت الإيديولوجيا هو إعلان صريح عن موت الفلسفة ، والتطور الحاصل في العالم على مستوى العلمي والتكنولوجي هو أحد العوامل

⁽¹⁾ الجابري ، المرجع نفسه ، ص 374 .

⁽²⁾ الجابري ، المرجع السابق، ص 375 .

⁽³⁾ الجابري ، المرجع نفسه، ص 416 .

المساعدة في الترويج لهذه الإشاعات ، وكأنها حرب معلنة ضد الفلسفة لتقليل من قيمتها والبحث بكل الكيفيات التي تعدم حضورها في راهنا المعاصر ، وهو وعي ينم عن الكراهية للفلسفة ، وهي المتغيرات التي لا نجد الجابري غافلا عنها ، حيث نجد يتابع التغيرات التي تحصل في ما هو معاصر من أفكار ، والمتابعة هنا تعني الدراسة والتحليل لهذه المتغيرات ، ويتجلى اهتمامه بها من خلال متابعة التطورات الحاصلة على مستوى المناهج العلمية وعلى مستوى الطروحات الفلسفية التي بلورها الفكر الغربي سواء الفكر الحديث أو الفكر المعاصر ، وكان تركيزه هنا منصبا بالأخص على فلسفة العلوم وهو ما يتجلى في القول التالي : " هذه المتغيرات لم يكن المثقف العربي الإسلامي بعيداً عنها ، خاصة وأنّ الحقول المعرفية الغربية وآلياتها المنهجية المتحولة باستمرار تشكّل مصدرًا للمفكر العربي في ظل الفقر المعرفي والمنهجي الذي نعيشه " (1) .

إنّ الوعي الذي تشكل عند الجابري بقيمة المناهج الغربية شكل بالنسبة له أحد القناعات الشخصية التي دفعته إلى استعارة بعض المفاهيم والمناهج لتطبيقها على الحقول المعرفية التي أنتجها العقل العربي ، تطبيق هذه المناهج يكون عن طريق توظيف الاستمولوجيا كمنهج لإحداث مساءلة نقدية للعقل العربي وعليه بإمكاننا : " اعتبار المفكر المغربي محمد عابد الجابري من الرّوادّ والدّاعين لهذا الاتجاه ، وقد ترجم رؤيته هذه في مشروعه : نقد العقل العربي ، حيث حاول تناول التراث على أساس (إبستمولوجي) لا (إيديولوجي) " (2) .

إنّ واقع الفكر العربي الراكد والمحتجز في المقولات القديمة التي تطبق الإيديولوجيا كأساس وحيد لقراءة ودراسة التراث تعتبر من بين أهم الدوافع التي جعلت الجابري يتجه إلى الاهتمام بالاستمولوجيا كمنهج لدراسة التراث ونقده ، ويرى في تطبيق الإيديولوجيا كأساس لدراسة التراث أمراً أفضى في الكثير من المواطن إلى بناء نتائج ناقصة ومشوهة ، بمعنى أن الوعي المنتج في هذا السياق وعي مشوه جزئياً ، وعليه يصبح تطبيق الاستمولوجيا أمراً حاسماً في إحداث الفارق ، لأن المنهج الاستمولوجي منهج يتجه إلى دراسة الأسس والطرائق التي ينبني عليها التفكير ولا يركز كلياً على المضامين ، وفي هذا السياق يقول على حرب : " المنهج

(1) حسين الإدريسي ، السابق ، ص ، 141 .

(2) حسين الإدريسي ، السابق ، ص ، 142 .

الإبستمولوجي لا يقوم على النظر فيما يُنتجه الفكر من آراء وتصورات ونظريات ومذاهب ، بل يقوم على البحث في أصول التفكير ومعايير وقواعده .. " (1).

إن تبني المنهج الإبستمولوجي في هذا المشروع الفكري يحمل في طياته بوادر التأسيس لمرحلة فكرية جديدة للعقل العربي بعيدة عن بوتقة الماضي ، هذا الماضي الذي يكرس النظرة التجزيئية التشطيرية ، وحول هذا الهدف يصرح الجابري قائلا : " فأنا أحاول أن أتعامل مع التراث الفكري العربي الإسلامي بمختلف مذاهبه ومنازعه وتخصصاته ، أتعامل معه كتراث من الكل ، أخذا جميع الفرق وجميع الآراء والمذاهب وأحاول التعامل مهم بشكل نقدي ، وهذا النوع من التعامل يتوحيّ بقدر الإمكان الموضوعية والحياد ، إذا أمكن أن أحققه ... " (2).

إن التصادم الواقع بين ما هم إيديولوجي وما هو إبستمولوجي وأشكال الصراعات المتولدة من خلال هذا التصادم من المسائل التي يستثمرها هذا الباحث في ترسيخ قناعاته الفكرية ، حيث استثمر هذا التصادم في التأكيد علة الملمح النقدي لمشروعه ، التصادم الذي نثيره هنا هو ذلك الذي تحدث عنه الباحث من خلال عرضه ودراسته لأنماط العقل العربي ، حيث لاحظ وجود صراع كبير بين أطر المعرفة وأنماطها الثلاث ، صراع بين النمط البياني والعرفاني والبرهاني ، وتجسد معالم هذا الصراع من خلال تفكك العلاقات بين هذه الأطر ، لذلك يرى هذا الباحث أنّ الممارسة النقدية ممارسة مؤهلة لدحض هذه الذهنيات المتخشبة والميتة التي سيطرت طويلا في الثقافة العربية الإسلامية .

إنّ تجاوز النظرة التجزيئية لن يكون بالأمر الممكن تحقيقه بين عشيو ضحاها ، بل إنّه عمل يتطلب الصبر والتريث ، كما يتطلب الجرأة الكافية للإصرار على كمطلب ضروري ، فالفرض الجابري لا بد له أن يُحدث نظرة منافية مناقضة للنظرة التجزيئية ، وهذا الفرض يجب أن يتسلح أولا بالحسن توظيف المصطلحات ، لذلك نجد الجابري يستعمل مصطلح التفكيك والبحث ، ويبرر ذلك قائلا : " نحن لا نصدر عن مثل هذا المنهج التجزيئي الفيلولوجي الاستشراقي ، ليس فقط لأنه مُعرّض للنقد علميّا ، بل أيضًا لأنه لا يستجيب لاهتماماتنا نحن العرب المعاصرين ولا لنوع الوعي الذي نريد أن يكون لنا عن تراثنا " (3).

إنّ توظيف المنهج الإبستمولوجي يطلب من الباحث أن يبحث عن طريقة تبينة هذا المنهج في ثقافتنا التي تتميز بخصوصياتها الرافضة لهذه مناهج ، وهذا الأمر شكل بالنسبة

(1) حرب ، علي ، نقد النص ، ج ، 19 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط 1 ، 1993 ، ص 94 .

(2) انظر : حسين الإدريسي ، السابق ، ص ، 143 .

(3) الجابري ، تكوين العقل العربي ، ص ، 187 .

للباحث أكبر الهواجس التي واجهته في فرضه هذا ، ذلك أن احالة العقل العربي والتراث العربي إلى أسس المسألة الابستمولوجية يتوجب التحضير له بشكل جيد وحذر في الوقت نفسه ، وهذا التحضير يجب أن يتم داخل بنية الثقافة العربية ، لأن المسألة التي يتحدث عنها الجابري هي مسألة تتجاوز قراءة المضامين ومحايثتها إلى تفكيك وتنقيح ونقد المناهج والنظم التي أنتجت بها النصوص التراثية ، وهنا يقول الجابري : " مشروع بيأسطة يتلخّص في تجديد العقل العربي من داخل تراثه بأدوات عقلانية مأخوذة من الثقافة الإنسانية ، لكنها مبيئة أي تمّ غرسها واستزراعها في بيئتنا ، محور هذا التجديد من الداخل تجديد الفكر الحدائي عند الحدائين لكي يتحدّث ، وتجديد الفكر الحدائي عند الحدائين بالتراث ، أي فهمه وهضمه ، ينبغي تجنب الفهم التراثي لتراث " ⁽¹⁾ .

تطبيق المنهج الإستمولوجي لا يهدف إلى النقد من أجل النقد ، بل يهدف إلى التوصل إلى بناء قراءة جديدة تفضي إلى كشف العقل الإيديولوجي وتعريته ، وهذا الكشف يقود بطبيعة الحال إلى اكتشاف مناهج وحدود ما يسميه الجابري العقل التشريعي ، يقول الجابري في هذا الشأن : " والواقع أن الشيء الأساسي الذي لابد أن يُلفت نظر الباحث الإستمولوجي في (علم أصول الفقه) هو أن النشاط العقلي داخله نشاط وحيد الاتجاه ، يتّجه دائما من اللفظ إلى المعنى ، كما في علم اللغة والنحو وعلم البلاغة ، صحيح أنّ الأحكام الشرعية إنّما تُؤخذ من أدلتها ، غير أنّ الأصوليين انساقوا انسياقا كبيرا مع إشكالية اللغويين والنحاة ، إشكالية اللفظ والمعنى " ⁽²⁾ .

إن الباحث الذي يستعمل المنهج الإستمولوجي يحس بأن هذا المنهج يمارس عليه سلطة ، وهي السلطة الابستمولوجية أو القوة الابستمولوجية ، والباحث في هذا السياق ملزم بأن يتجاوز مجرد اللهو المعرفي ، ذلك أنّ الدراسة النقدية كممارسة علمية تتعدى أن تكون نزوة أو رغبة عابرة ، وهذا ما ندرك حضوره عند الجابري .

الممارسة الابستمولوجية عند الجابري محفوفة بالمخاطر ، لأنها معرضة إلى إثارة النعرات الإيديولوجية ذات الطابع المذهبي والطائفي ، وهو ما كان الجابري حذرا منه ، لذلك يتحدث الجابري عن ضرورة التخفيف من النقد ، وتقليل الإحراج الذي يسببه النقد الابستمولوجي الراجع إلى تلك السلطة التي يمتلكها ، وفي هذا الشأن يقول الجابري : " وقد

⁽¹⁾ الإدريسي ، السابق ، ص ، 145 .

⁽²⁾ الجابري ، بنية العقل العربي ، ص ، 56 .

حرصنا أشد الحرص على تجنب إثارة الحساسية الطائفية فخففنا من النقد إلى أدنى درجة ممكنة بالنسبة للمذاهب التي ما زالت موجودة ... ومع هذا الحرص فإننا لا نستطيع أن نبرئ أنفسنا في أعين من يصدر عن تكفير طائفي ، ذلك لأن من يعيش في مجتمع غير طائفي لا يستطيع أن يتوقع جميع ردود الفعل التي قد تصدر ممن يعيش في مجتمع طائفي " (1).

إن عملية التخفيف لا تعني التخلي عن ممارسة النقد ، ولكن المقصود منها من خلال هو : ممارستها قدر الإمكان ممارسة لا تفيد تبرئة الذات والتخلي عن حقيقة النقد الاستمولوجي وجعلها تذوب في هواجس الذات ، بل إن الجابري يسعى من خلال فعل التخفيف قدر الإمكان إلى جعل التحليل يتحرك على مستوى الاستمولوجي فقط ، حتى لا يثير النعرات المذهبية ، لأنّ الهدف الرئيس للمنهج الاستمولوجي هو تجاوز التضيق الإيديولوجي والتنفير منه ، لذلك فهو ملزم على تحقيق النقد لا يخرج عن هذا الإطار وإلا تحول الاستمولوجي إلى إيديولوجي .

5 - الاستنتاج

إن المسألة العقل العربي التي يدعوا إليها الجابري تتأسس أولا على جملة من المسلمات والمنطلقات ، حيث يكون البحث عن الدلالات التي تشير إلى البنية المفاهيمية للعقل العربي إحدى أهم هذه المنطلقات ، وهو يؤكد عليها لأنه يراها أمرا حاسما في تحديد مفهوم للعقل العربي ، وفي تحديد المفهوم تهون أمام الناقد كل الصعوبات وتذوب كل الهواجس ، ذلك أنّ عملية المسألة تستلزم هذا المنطلق وتوظفه في عملية التبيين للمنهج الاستمولوجي من خلال إدراك ذلك التصادم الموجود بين أنماط المعرفة .

مشروع الجابري يسعى إلى تذويب هذا التصادم بتجاوز النظرة التجزيئية التي يراها الجابري قد أفضت إلى تغليب التفكير في المسائل التراثية ، لذلك فإن توظيف المنهج الاستمولوجي ضرورة لا مفر منها لأنها كفيلة بتجاوز هذا التصادم وإحداث قراءة نقدية للعقل العربي ومنتجاته ، حيث تفضي هذه القراءة النقدية إلى صياغة وعي جديد ومنه التأسيس لعقل عربي جديد .

(1) الجابري ، العقل الأخلاقي العربي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط 1 ، 2001 ، ص ، 258 .

المصادر والمراجع

- الجابري ، محمد عابد ، بنية العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط 1 ، 2009 .
- الجابري ، محمد عابد ، تكوين العقل الغربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط 1 ، 2009 .
- الجابري ، محمد عابد ، العقل الأخلاقي العربي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط 1 2001 .
- حرب ، علي ، نقد النص ، ج ، 19 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط 1 ، 1993 .
- حسن الإدريسي ، محمد عابد الجابري ومشروع نقد العقل الغربي ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 2010 ، ص 09 .
- الشيبي ، كامل مصطفى ، الصلة بين التصوف والتشيع ، دار المعارف ، القاهرة ، 1969 .
- هوازن القشيري، عبد الكريم ، الرسالة، دار الكتب العربي، بيروت، د(ط ، س) .
- الوكيلي، محمد ، عزيز ، تحديث العقل المسلم ، مطبعة الرباط ، ط 1 ، 2004 .